والمـائية ، فكيف تأتى النار من المـاء ، هذه آية يروْنَهـا فى البيـئات العـربية كل يوم ، ومـعلوم أن الحطب هو أول وقود عـرفه الإنـسان واستخدمه بسلام ؛ لأنه أصْفَى وقود ، وهو صحىٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضـر بهـا ، ولك أنْ تقـارن بين وقود الـحطب ووقود البـترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فـبعـد أنْ ذكـر سبـحانه آية جَـعْل الشجـر الأخضر ناراً ، يسوق الدليـل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشـاهده ونباشـره . وحيـثيـة هذه الآية جاءت فى آية أخـرى ، حيث قال الحق سـبحانه : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّـلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مـع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكـبر من خَلْق الناس ، نقـول : نعم خَلْق السـموات والأرض أكبـر من خَلْق الناس ؛ لأنهـا منذ خلقهـا الله على حالهـا لم تتغيـر ، وستظل إلى قيام السـاعة ، أما أنت أيهـا الإنسان فـتمـوت ، تمـوت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تمـوت وأنت شـاب وأنت شـيخ هَرِم ، وقـصـارى مـا يمـكن أن تصل إليـه لو عُمرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وَهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هى شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير فى شىء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات فى السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا فى المادة فهى تبقى وأنتم تموتون ، وفى المعانى والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تـ اندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفى : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ..﴿٨١﴾﴾ [يس]

فيقول (بَلَى) أى : نعم قادر ﴿وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾[يس] أى : بمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التى رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليـة بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيهـا الإنسان قدرة الله ، وقـد أفاض عليك بمـثلها فى ذات نفسك ، فـأنت مثلاً حينمـا تريد أنْ تقوم من مجلسك ، مـاذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هى العضلات التى تقيمك ، وما الأعصاب التى تتحكم فى هذه العملية ؟

إنك تقوم بمـجرد إرادتك للقيـام وليس لك دَخْل فيـها ، بدليل أن الطفل الصغـير الذى لا يعرف عن تكوين جسـمه شيئـاً يقوم إذا أراد القيام ، فـإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشـياء دون أنْ تقولَ لها انفعلى ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا فى حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائـى وأقول لها : اعملى كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبـحانه يقول للشىء كُنْ لأنه سبحـانه يعلم أن الأشياء ستـأتمر بأمـره ، ولن تخـرج عن مـراده ، إنمـا هل أنت واثق أنهـا ستـأتمر بأمـرك إنْ أمرتها ؟ إنـك لا تثق بهذه المسـألة بدليل أن الله تعالى حـين يسلب الإنسان هذه الـقدرة تخرج أعـضاؤه عن طاعـته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقـول : إذا كـان المـخلوق مـجـرد إرادته تسـيطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمـة (كُنْ) يقولهـا الله ليقرِّب لـنا فَهْم المـسألة ، ويقـولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفـعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحـانه موضحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾[الانشقاق] أى : حَقَّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .

ومعنى ﴿ أَن يَقُولَ لَهُ (٨٢) ﴾ [يس] أى : للشىء الذى لم يُوجد بَعْد ، فكيف إذن يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً فى عالم اسمه « عالم المثال » ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالم الوجود ؛ لذلك قال أحد العارفين : أمور يُبديها ولا يبتديها .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

عرفنا فى الآية السابقة أن الحق سبحانه إذا قال كُنْ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت ، أما إنْ قالها الإنسان فلن يستجيب له شىء ، وقلنا : إذا ورد لله تعالى وَصْف يُوصف به البشر ، فعلينا أنْ نأخذه فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] إذن : طبيعى أنْ تختم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ (٨٣) ﴾ [يس] يعنى : تنزيهاً له عن أن يُشبهه أحد ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وكلمة ﴿ مَلَكُوتُ (٨٣) ﴾ [يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة : الأول : نقول مالك ، وهو كل مَنْ ملَك شيئاً ولو كان يسيراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك . الثانى : نقول مَلِك وهو الذى يملك مَنْ ملَك أى : يملك أنْ يتصرف فيه وفى إدارة حركته ، الثالث : كلمة المُلْك وهى أن يترقى الملك فى أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع : كلمة الملكوت ويُراد بها الملْك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك .

وقد يكون الشىء من عالم الملكوت ، ثم يصير إلى عالم المُلك مثل الأشياء التى كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها ، فصارت

مشهودة ، وهناك أشياء تظل دائماً فى عالم الملكوت لا نعرف شيئاً عنها إلا فى الآخرة ، وهذا النوع هو الذى يُكذِّبون به ، ومن ذلك قوله تعالى فى شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

نعم ، يُطلعه الله على عالم الملكوت ، لأنه لما أطلعه على عالم الملْك وابتلاه نجح فى الابتلاء بتفوق ، نجح فى كل مراحل حياته ، نجح وهو شيخ كبير فى مسألة ذَبْح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلْقى فى النار ؛ لذلك صار أهلاً لأنْ يُطلعه الله على أسرار الكون ، وعلى عالم الملكوت ، كما لو أن فى أولادك ولداً صالحاً ترى فيه مخايل النجابة ، فتصطفيه بشىء تفضله به عن باقى الأولاد ، كذلك مَنْ يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء .

ومن ذلك ما قَصَّه علينا القرآن فى سورة الكهف من قصة العبد الصالح الذى رافقه نبى الله موسى وتعلَّم منه ، والذى قال الله فيه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

هذا العبد الصالح لم يكُنْ نبياً ، ولم ينزل عليه الوحى ، ومع ذلك تعلَّم منه النبى ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبَّقه على نفسه ، فلما علم الله منه أنه مأمون على مناهج الله وعلى أسراره زاده وأعطاه من علمه اللَّدُنيِّ ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألاَ ترى أن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ غضب منه حينما خرق السفينة ، وتعمد أنْ يَعيبها ، وهى لمساكين فقراء ، هذا هو عالم الملْك الذى اطَّلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت ففى قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] فأطلع الله العبدَ الصالح على بعض عالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عليه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل : رحموت وجبروت ورهبوت ، فهى إذن للمبالغة فى الملْك ، لكن نلحظ عند علماء القراءات أن أحدهم يقرأ : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ [الفاتحة] فيقول (مَلِك يوم الدين) بدون صيغة المبالغة ، قالوا : لأن الكلام عن يوم الدينَ ، وفى هذا اليوم الملْك كله لله وليس لأحد مُلْك ، ولا حتى الثوب الذى يرتديه .

ومن ذلك أيضاً قولنا فى الأذان الله أكبر فذكر الصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يتأتَّى ذلك فى شعار الصلاة ، التى هى عماد الدين ، ونأتى بالصفة دون الاسم ؟ قالوا : لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستجابة لنداء ربهم ، والعمل له اعتباره فى الإسلام ؛ لأنه مهمة الإنسان فى الحياة ، وبه يتوصَّل إلى طاعة الله ؛ لذلك يُقدِّره الدين ولا يحتقره .

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر ونداء ربِّك أهم ، أما كبير فهى اسم من أسماء الله . ومعنى كبير أن ما دونه صغير ؛ لذلك أتى فى الأذان بالوصف لا بالاسم .

فقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يس] أى : ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما خَفى عنك ، ثم توصَّلْتَ إليه بالعلم واكتشفته ، والذى لا تراه من الملك إلى أنْ يخبر الله به أحد عباده : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الجن].

والتحقيق أن المغيبات والأسرار المطمورة فى الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكْشف له ، وقلنا : إن كل سِرٍّ فى الكون أراد الله أنْ

يُظهره له عمر وميلاد ، فإنْ صادف ميلادُه بحثَك ظهر على يديك ، وإلا أظهره الله لك مصادفة فى موعده إذا لم تبحث عنه ؛ لذلك يقولون : إن سبعة وتسعين بالمائة من مكتشفات الحياة ظهرت لنا مصادفة .

ويقول سبحانه فى آية الكرسى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ** (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فالإنسان لا يحيط إلا بعلم الشىء اليسير من علم الله ، ولا يحيط بهذا اليسير إلا بعلمه تعالى وإذنه ، حين يأذن بميلاد الشىء وظهوره .

وقوله سبحانه : ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (٨٣) ﴾ [يس] أى : يوم القيامة ، فكونوا على ذكْر لهذه الحقيقة ، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخَلْق ترهبه نعمة الإعادة والمرجع ، فأنتم ما خُلقْتم عبثاً ، ولن تُتْرَكُوا سُدىً .


سُورَةُ الصَّافَّاتِ